مشكلة الأقلية في الرواية التاريخية اللبنانية

بقلم : د • منصور الحازمي

عميد كلية الآداب ـ جامعة الرياض ـ

ان العوامل التي أدت الى ظهـــور الرواية التاريخية في أوروبا تختلف كل الاختلاف عن تلك التي أدت الى ظهورها في شرقنا العربي ، فبينما كانت النزعة القومية قد عرفت في أوروبا منذ بداية القـــرن التاسع عشر ، نرى أن هذه النزعة لم تكتشف فلسفتها في العالم العربي وفي الشرق عامة الا بعد حوالي قرن من الزمان ، (١) لقد كانت الحركة الرومانتيكية في أوروبا بمثابة الوليد الذي ترعرع في أحضان الثـورة الفرنسية (٢) ، واتسمت تلك الحركة بعاطفتها المتأججـة في التغنـي بأمجاد الماضي ، مؤكدة أهمية التراث القومي ، مما أدى الى انتعـاش الدراسات اللغوية والتاريخية في أنحاء متفرقة من القارة الاوروبية(٣) وهذه التغيرات التاريخية والاجتماعية هي التي أدت الى ظهور الرواية التاريخية في نظر بعض الباحثين ، اذ أصبحت المعالجة الفنية للماضي ضرورة ملحة ، بعد أن تحول التاريخ الى واقع معاش محسوس ، أيقظت أحداثه المشاعر القومية في نفوس الجماهير (٤) أما في العالم العربي فقد كان القرن التاسع عشر هو عصر النهضة ، ولم يكن مجرد مرحلة جديدة في مسار طويل من التطور الحضاري ، أو عصر تمرد على مجموعة من القيم والمباديء والافكار ، كما هو الشان في رومانتيكية القرن الثامن عشر في أوروبا ، لقد كان اتصال العالم العربي باوروبا مفاجئـا وغـير متكافيء ، اذ أنه اتصال بين شرق متقوقع على نفسه ، وغرب متقـــدم متطور ، مما أحدث في العالم العربي تغيرات جذرية وصراعا عنيفا بين القديم والجديد ، وتلك مرحلة انتقالية من ط بيعتها غموض الرؤيـة واضطراب المفاهيم (٥)

ان لقاء الشرق بالغرب ابان الحروب النابوليونية قد فتح الباب على مصراعيه للمؤثرات الغربية ، ولكن اللقاء في حد ذاته لم يوقظ الضمير القومي في البلـــدان العربية ، على الرغم من اليقظة العربية الشاملة وما تمخض عنها من أحداث ومضامين فكرية واجتماعية (٦) واقتصرت اليقظة العربية في تلك الفترة على احياء التـــراث والنهوض باللغة العربية ، أما القومية العربية فقد ظلت طوال القرن التاسع عشر وحتى العقد الثاني من القرن العشرين مجرد فكرة نظرية لايؤمن بها الا حفنــة من المفكرين (٧) وفضلا عن ذلك ، فانفكرة القومية العربية لم يكن لهاوزن يذكر بجانب الاتجاه القوي الى المطالبة بالاصلاح الدستوري (٨) بل ان الاحساس القومي عند رواد فكرة الجامعة العربية ــ مثل فرانسيس المراش وأديب اسحاق ــ لم يكن منفصلا عــن تلك الاصلاحات السياسية التي رغبوا في اجرائها داخل الامبراطورية العثمانية ، ولم تكن أفكارهم من الوضوح والتحديد بحيث يمكن تفسيرها على أنها دعاوة قوميـــة ، والحقيقة أن مايمكن ان يستشفه المرء من كتاباتهم ليس الاحساس بالقومية العربيــة بقدر ماهو الاحساس بالوطنية ، ذلك لان ماكان يشغل تفكـيرهم حقا هو ســـوريا ــ وطنهم الام ــ التي طالبوا بالعيش على أرضها والاقامة فيها سعداء أحرارا (٩) ،

ان تأييد الافكار القومية كان أمرا طبيعيا بالنسبة للســـوريين واللبنـــانيين المسيحيين ، الذين كانوا قد نشئوا على المثل الغربية ولا سيما مبادىء الثورة الفرنسية وعلاوة على ذلك ، فان وضعهم الخاص كأقلية دينية قد جعلهم يتشبثون بفكرة الدولة العلمانية (١٠) ومنهم من شهد فظائع الصراع الطائفي ، وخاصة تلك المذبحة الرهيبة التي خضبت لبنان بدمائها سنة ١٨٦٠ ، وكان كابوسهـــا المخيف لايزال عالقـــا في أذهانهـــم (١١)

لهذا كله فقد حاولوا التخلص من عزلتهم الدينية ، وبحثوا عن فكرة أخـرى يجتمعون عليها غير الدين الذي كان في نظرهم السبب الرئيسي لمآساتهم ومحنتهم (١٢)

ومن الطريف أنهم وهم يبحثون عن « ايديولوجية » جديدة ، قد أصبحوا روادا لاحياء التراث العربي ، فاسم ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ــ ١٨٧١) مرتبط دومـــا بالدراسات اللغوية لانتاجه الغزيز في هذا الميدان ، وما أبداه من حماسة نحو احيـــاء اللغة العربية التي كان يعتبرها ميراثا مشتركا ورابطة قوية تجمع كلا من المسلمـــين والمسيحيين على حد سواء ، (١٣) وكذلك الحال عند بطرس البستاني (١٨١٩ ــ

١٨٨٣) فقد ألف أول موسوعة عربية ، وكان يرى أن نشر المعرفة من أكثر الوسائل فعالية للقضاء على التعصب الديني ، لأن المعرفة ، كما يقول ، تؤدي الى التنور الذهني ، والتنور الذهني يقود الى موت التعصب وولادة مثل مشتركة يدين بها العرب جميعا لا فرق بين مسلمهم ومسيحيهم (١٤) وقد حاول بطرس البستاني أيضا ، من خلال نشاطه الاصلاحي ، أن يجمع بني وطنه تحت راية (الوطنية) بدلا من اجتماعهم تحت راية العقيدة • وهذا ماجعله يختار عبارة (حب الوطن من الايمان) شعارا لمجلته « الجنان » يتصدر الصفحة الاولى من كل عدد منها ، وقد أشار جورج أنطونيوس الى أهمية هذا الشعار قائلا انه يعبر عن عاطفة لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت في العالم العربي (١٥)

واذا ماالتفتنا ، من ناحية أخرى الى دعوة جمال الدين الافغاني الى الوحدة الاسلامية وجدناها تعبر عن مشاعر المصريين المسلمين ، الذين رأوا فيها أيضا سلاحا فعالا لمكافحة القوى الاوروبية وأطماعها ، والتي كانت تسعى الى تصفية الدول الاسلامية أو السيطرة عليها على الاقل ، ومن هنا كانت استجابة المصريين السريعة الى ماكان ينادي به الافغاني من اصلاحات في مجال الحكم والسياسة والدين ، وينبغي أن نلاحظ أن تلامذة الافغاني من المصريين ــ وفي مقدمتهم محمد عبده وعبد الله النديم ــ ماكانوا ينظرون الى المشاعر الوطنية كشيء منفصل عن العقيدة الدينية •

لقد وجدت مبادرة الافغاني صدى حسنا في أوساط المتمصرين من السوريين واللبنانيين المسيحيين ، فهم يشاركونه كراهيته للحكم المطلق وحماسته للحكومة الدستورية ، ولكنهم كانوا بطبيعة الحال لايحبذون فكرة الوحدة الاسلامية ، أولا : لأنها فكرة مرتبطة بالدين ، وثانيا : لأنها فكرة مرتبطة بالخلافة التركية ، ولقد كانت كراهيتهم للحكم المطلق نابعة من كراهيتهم للخديوي اسماعيل ، الحاكم التركي ، في حين أنهم كانوا أكثر تسامحا فيما يختص بالنفوذ الغربي (١٦)

وذلك الحقد المتأصل في نفوس العثمانيين المسيحيين تجاه الامبراطورية العثمانية وتعاطفهم مع الغرب هما نتيجة طبيعية ــ كما يقول جرجي زيدان ــ لفساد الحكم التركي من جهة وللمؤثرات الحضارية للقوى الغربية من جهة أخرى ، يقول جرجي زيدان : (ان الدول الاوروبية في نهضتها وجهت أنظارها نحو الشرق وأخذت تغري مسيحيي مصر والشام وأرمينيا بالانحياز اليها باسم الدين عن طريق التعليم أو

الاحسان أو التبشير ففتحوا المدارس وأنشأوا الكنائس وبثوا عوامل التمدن الحديث المبني على الحرية الشخصية واستقلال الفكر ، والحكومة العثمانية لاتزال على الطراز القديم وقد اختلفت أحكامها وفسدت أمورها ، فازداد النصارى تباعدا عنها وأصبحت بين خطرين عظيمين ، طمع الدول الاوربية من الخارج وحقد رعاياها النصارى من الداخل فتضعضعت أحوالها (١٧)

ومع ذلك ، فان المفكرين من السوريين واللبنانيين المسيحيين لم يرفضوا فكرة (العثمانية) كل الرفض ـ وهي الفكرة التي تحولت الى حركة سياسية وأثير حولها ، كغيرها من الحركات السياسية ، جدال عنيف في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (١٨) فالىجانب الانفصاليين المتطرفين ، كانهناك فريق من السوريين واللبنانيين المسيحيين الذين أبدوا تعاطفا مع المصريين في ولائهم للخلافة الاسلامية ، كما كان منهم المعتدلون على الرغم من سخطهم على الادارة التركية واقتناعهم بضرورة احداث تغييرات اصلاحية الا أنهم كانوا يدركون أهمية الحفاظ على الكيان العثماني كسد منيع ضد التيارات الغربية الجارفة ، (١٩) ومن هؤلاء المعتدلين جرجي زيدان الذي عبر في مجلته (الهلال) ، وخاصة في مقالاته المبكرة ، عن تأييده وتعاطفه مع الدولة العثمانية ، وقد صرح بأن اختياره لاسم (الهلال) انما كان تبركا بالهلال العثماني الرفيع الشأن شعار دولتنا العلية أيدها الله (٢٠) وكذلك فرح أنطون ، اذ عبر مرارا عن ضرورة التعاون بل التحالف بين الامم الشرقية كي تستطيع الصمود في وجه التيارات الغربية ، وقد سمى مجلته (الجامعة العثمانية) (٢١)

وعندما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ عمت الفرحة جميع الولايات العثمانية لانه جاء تحقيقا للحلم الذي طالما راود أذهان المصلحين السياسيين ، وكان الدستور يعني أكثر من هذا بالنسبة للسوريين واللبنانيين المسيحيين ، فقد رأوا فيه ضمانا للحرية والمساواة بين جميع مواطني الامبراطورية العثمانية والغاء للفروق الدينية ، وقام شعراؤهم بمهاجمة التعصب الديني ، منفسين بذلك عن المشاعر المريرة المكبوتة التي ظل قومهم يعانون منها ـ كأقلية دينية ـ منذ أمد طويل ، وكان ترحيبهم بالعهد الدستوري أكثر حرارة وأشد عنفا من ترحيب اخوانهم المصريين المسلمين ، ولم يكتف بعضهم بالدعوة الى الاخوة العثمانية ، بل مضوا في تطرفهم الى الحد الذي أتهموا فيه الدين ورجاله بأنهما السبب في تفكك الشرق وانقسامه وضعفه (٢٢)

وعند سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ابتهج السوريون واللبنانيون المسيحيون ابتهاجا عظيما ، فقد رأوا فيه سقوطا للظلم الذي قاسوا منه أمدا طويلا ، وذلك على العكس من اخوانهم المصريين المسلمين (٢٣) ويمكنناأن نتتبع كذلك اختلاف المواقف وتباين المشاعر عند كل من الفريقين ابان الثورة العربية ضد الاتراك سنة ١٩١٦ ، وهي السنة التي تبلورت فيها فكرة القومية العربية وتحولت الى واقع حي وحقيقة ملموسة (٢٤) .

***

لقد رأينا فيما مضى كيف أن اللبنانيين المسيحيين قد عاشوا في ظروف خاصة أملت عليهم موقفا سياسيا أو اتجاها فكريا معينا ، وسنحاول فيما يلي أن نتلمس ماعكسته تلك الظروف على انتاجهم الادبي في ميدان الرواية التاريخية من ناحية الموضوع واختيار الفترة التاريخية أو معالجة التاريخ ، حقا ان مشاكل العصر كانت تشغل حيزا كبيرا من تفكيرهم ، ولكن هناك مشكلة خاصة لاتقل أهمية كانت تؤرقهم وتسيطر على مشاعرهم وهي مشكلة التعصب الديني ، ومن هنا فقد التفتوا الى الماضي وعيونهم مثبتة على صورة كئيبة من تاريخهم الحديث ، فمضوا يبحثون في الماضي عن مرآة تعكس مشاكلهم في تاريخ ماقبل الاسلام أو التاريخ الاسلامي أو التاريخ الحديث .

وعندما كتب سليم البستاني رواياته التاريخية لم يكن قد مضى أكثر من عشر سنوات على مذبحة ١٨٦٠ ، فلم يستطع التخلص من قضايا بلاده ، بل اضطر الى أن يحشو رواياته بالمقالات الاصلاحية الطويلة والعديد من التعليقات الوعظية ، ومن الواضح أن اختياره لسوريا الكبرى مسرحا لاحداث رواياته الثلاث ـ زنوبيا ، وبدور والهيام في فتوح الشام ـ لم يكن اختيارا عشوائيا ، بل انه تعمد ذلك ليتمكن من اجراء المقابلات أو المقارنات بين الماضي والحاضر ، وكأن الكاتب قد أراد أن يؤكد من خلال ذلك وحدة الشعب والوطن وان اختلف الزمان وتبدل الحال ، ولعلنا نستطيع من خلال الفصل التالي من رواية (زنوبيا) أن نوضح مايهدف اليه البستاني من موازناته بين فترتين تاريخيتين مختلفتين . فهاهي الملكة زنوبيا تفضي الى صديقها الحكيم لونجينوس بما يعتلج في صدرها من هموم وما تحسه من قلق نحو شعبهاالسوري الذي أصابه التفكك والضعف ، وهي لاترى وسيلة لانقاذه الا باتباع الاصلاحات الآتية :

أولا : محاربة التعاليم السفسطائية التي تسربت الى البلاد من اليونان ، لأن تلك التعاليم قد حادت بالشبان عن طريق الصواب ، وساعدت على انتشار الكذب والخداع والخرافات والاقبال على الملذات •

ثانيا : عدم التعرض لحرية الاديان ، كيلا تمزق الامة ويقضى على وحدتها •

ثالثا : العمل على تنمية الشعور الوطني في نفوس الافراد (فانهم مع كونهم من أجناس مختلفة وآراء شتى متباينة الاصول والتعاليم لايزالون متحدين في محبة الوطن والدولة) •

رابعا : الاهتمام بالتعليم وترقية التجارة والصناعة وازدياد ثروة الاهالي (٢٥)

وغني عن البيان أن ماكانت تفكر فيه زنوبيا من اصلاحات للنهوض بسوريا القديمة لايختلف في جوهره عما كان يفكر فيه سليم البستاني وما كان يطمح الى رؤيته واقعا ملموسا في سوريا المعاصرة •

أما اختيار جرجي زيدان لموضوعاته الروائية وتناوله للاحداث التاريخية فلا يكفي أن نعتمد في تفسيرهما على مجرد الرغبة في انتقاء المواقف الدرامية التي تتناسب مع الفن القصصي ، كما لايكفي كذلك القول بأن الكاتب قد أراد أن يرضي قراءه ، وهم مختلفون بطبيعة الحال فكرا وجنسا وعقيدة ، فعلى الرغم من انصراف زيدان كلية الى التاريخ الاسلامي ، ورغم اهتمامه الشديد وتعلقه بالموضوعية الا أنه لم يستطع مع ذلك التخلص من لبنانيته ومسيحيته ـ وكانت عقيدته تتحكم ولا شك في مواقفه وآرائه ، يدلنا على ذلك أن اختياره للموضوع التاريخي غالبا مايتركز حول النزاعات الطائفية بين السنة من جهة وبين الفرق والمذاهب الاخرى من جهة ثانية ، وهو كثيرا مايبرز جانب القسوة في هذا الصراع وكذلك فان موقفه من الفتوحات والبطولات الاسلامية لايمكن أن يوصف الا بالبرود واللامبالاة • أما أبطاله الاخيار وبطلاته الفضليات فهم من غير المسلمين ، وغالبا مايختارهم المؤلف من النصارى أو المهرطقين ، وأحب الاماكن التي يرتادها خيال جرجي زيدان ويحوم حولها هي الكنائس والاديرة ، ويبرز موقف زيدان من التاريخ العربي والاسلامي بصورة أكثر جلاء اذا ماقارناه بموقف كتاب الرواية التاريخية من المسلمين في فترة لاحقة ، من أمثال ابراهيم رمزي وعلي أحمد باكثير ومعروف الارناؤوط ، ولعله من العدل أن ندرس

روايات جرجي زيدان في ضوء العصر الذي كتبت فيه ، وفي اطار الاتجاه العام الذي غلب على انتاج اللبنانيين المسيحيين في تلك الفترة .

ورواية فرح أنطون (أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس) دليل آخر يؤيد ماتحاول أن نثبته هنا من وجود ذلك الاتجاه المتميز ، فهي رواية تعبر في جوهرها وبعبارات أكثر جرأة وصراحة من الرواية (الزيدانية) عن مشاعر اللبنانيين المسيحيين وعن أفكار التقدميين منهم بصورة أخص ، أن (أورشليم الجديدة) لاتعدو الحلم الذي كان يداعب أخيلتهم بمجتمع متحضر يكفل حرية الاديان والمساواة بين جميع المواطنين ، والمؤلف انما يهرب الى الماضي ليحقق هذا الحلم أو ليخلق تلك (اليوتوبيا) التي تصورها : أورشليما جديدة تقام على أنقاض أورشليم القديمة الفاسدة ، والتي كانت مملوءة بالجهل والنفاق والتعصب الديني والصراع الطائفي ، كما كانت تعاني من استبداد الكنيسة وفقر الطبقات الدنيا وشقائها ، أما أورشليم الجديدة التي تخيلها فرح أنطون فهي على العكس من هذا كله ، اذ أنها المدينة الفاضلة التي يتمتع مجتمعها بالتسامح الديني والحرية والمساواة والديمقراطية والاشتراكية وجميع المثل العليا في نظر المؤلف .

من المؤكد ، اذن ، أن فرح أنطون لم يلتفت الى الماضي ليخلد البطولات العربية أو ليباهي بأمجاد الفتوحات الاسلامية ، بل كان حافزه ذلك الحلم الذي تحدثنا عنه ، وهو لايختلف عن زيدان في تجاهله للجوانب المشرقة في الفتوحات الاسلامية ، بل ان العرب الفاتحين في نظره انما انتصروا على بيت المقدس الضعيفة ، أو على أورشليم القديمة ، فأي فخر في ذلك الانتصار ؟ (فلو تداركها اليونان لكان عندهم أجمل وأقوى وأعمر سلطنه في الارض ولما تمكن أحد غيرهم من منازعتهم في شيء) (١) وكذلك فان المؤلف يذرف الدموع على بيت المقدس حين فتحها العرب المسلمون ، اذ يعتبر ذلك الفتح بداية للانقسام الطائفي في سوريا ، وسببا في انتقال الحضارة من الشرق الى الغرب عقب الحروب الصليبية :

(فيا أورشليم استعدي فهذا عنصر جديد قد انضم الى عناصرك ، وكل محب للشرق يتمنى لو لم يكن هذا الانضمام ، لأنه سيجر على الشرق كله ويلات هائلة ، سيأتي يوم ياأورشليم الجميلة ينسى فيه هذا العهد العمري فتشتد دواعي الجهل والبغض بين عناصرك ، وحينئذ يختل ميزان العدل بين الناس ويشتد الاضطهاد ، فيتخذ الغرب هذا الامر حجة للزحف على شرقك رغبة في استخلاصك ، حينئذ تقوم حرب هائلة بين

الشرق والغرب وهي الحروب التي سيسمونها حروبا صليبية ، وستجني هذه الحروب بأورشليم على الشرق جناية هائلة ، لانها ستكون من أسباب زوال مدنيته العظمى وانتقالها الى الامم الغربية (٢٦)

وتصويرهم المتكرر لمذبحة ١٨٦٠ التي راح ضحيتها الآلاف من اخوانهم المسيحيين باسم الدين ، مع أنها انما حدثت بتحريض من الدول العظمى ، يعكس مدى المرارة التي كانوا يحسونها في أعماقهم كأقلية دينية ، ونحن نجد أن معظم الروائيين اللبنانيين قد سجلوا هذه المأساة في أعمالهم القصصية ، واستعاروا من حوادثها عقدا لرواياتهم : جرجي زيدان في (أسير المتمهدي) ، ويعقوب صروف في (أمير لبنان) ، ولبيبة هاشم في (قلب الرجل) ولم ينسها نقولا الحداد ، مع أنه عاش في فترة متأخرة اذ صورها في روايته « نبية لبنان وملك فينيقيا الجديد » .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الشعور بالاقلية في رواية اللبنانيين المسيحيين ، ألا وهو الحنين الى الوطن الاصلي الذي هاجروا منه الى مصر نتيجة الاضطهاد أو الفاقة ، ويتجلى هذا الحنين في اختيارهم لسوريا الكبرى مسرحا لمعظم رواياتهم سواء أصورت الماضي أم الحاضر ، وقد تكون هذه الظاهرة مرتبطة بالمشكلة الاساسية ، أي مشكلة التعصب الديني ، ومع ذلك ، فان معرفة الكاتب ببيئته الاصلية وذكرياته عن مدارج طفولته ومرابع صباه هي التي تشده دائما الى وطنه الاول (٢٧) ولعل وصف الطبيعة اللبنانية الجميلة ، التي غالبا مايصدرون بها رواياتهم ، انما يرمز الى الفردوس المفقود من شبابهم وذكرياتهم ، ومهما قيل عن سذاجة هذا الوصف وسطحيته الا أنه ولاشك يعكس الشعور العميق بالانتماء ، وعلى الرغم من أن جرجي زيدان لم يكن شاعرا ومنهجه أقرب الى مناهج العلماء ، غير أن حبه العميق لمسقط رأسه أمر مؤكد ، فهو يختلق الاسباب والمبررات ،ولا سيما في رواياته الثلاث الاولى ، كي تعود شخصياته بعد تطواف طويل الى لبنان حيث يسدل الستار في ربوعه على نهاية سعيدة ، وهناك يلتئم شمل الاحباء : الزوجة تلتقي أخيرا بزوجها ، والاب يعثر على ابنه المفقود والحبيب تقر عينه بحبيبته (٢٨)

وفي رواية (أسرار الثورة الروسية) لخليل سعادة نرى المؤلف ، وقد أدرك بعد الصلة بين وصفه لطبيعة لبنان وبين الموضوع الاجنبي للقصة ، يحاول أن يبرر هذا الوصف بقوله أنه قد تعرف على بطل الرواية أثناء احدى زياراته (للوطن العزيز) وكان ذلك كافيا في نظره ليبدأ قصته بهذا الوصف الجميل للطبيعة اللبنانية :

يرى السائح بين هضاب لبنان وأنجاده بناء فخيما على شاهق من ربوة تحف بها الانجم والاشجار ، وتعلوها الرياض والازهار ، يجري في سفحها العميق أخاديد في أعماق الوهاد ، وتتجلى الطبيعة حولها ملكة بارزة في جلباب العظمة والجمال ، فانك اذا نظرت شرقا رأيت جبل صنين وقد لبس تاجا من الثلوج ينطح بها هام السحاب وقد تلبد الغمام فوقه جلابيب بعضها فوق بعض ثم تتبدى أمامك سلسلة من الجبال تخترقها الاودية ، وقد كساها النبات وغطت سفحها الاشجار ، واذا أدرت لحاظك غربا وجدت البحر المتوسط منبسطا رقعة زرقاء كأنه عند موطيء قدميك تتهادى أمواجه الطامية متلاحمة على سطحه فاذا قربت من البر تنفست زبدا وانبسطت على تلك الرمال حيث قائمة هناك تلك العروس البديعة مدينة بيروت (٢٩)

وتتكرر مثل هذه القطع الوصفية للطبيعة اللبنانية في الفصول الاولى من رواية (حسن العواقب أو غادة الزاهرة) لزينب فواز ورواية (أمير لبنان) ليعقوب صروف ٠

وهكذا نستطيع أن نستنتج مما قدمناه أن الرواية التاريخية في مراحلها الاولى ، وكما كتبها اللبنانيون المسيحيون ، لم تك تعكس شعورا واضحا بالقومية العربية ، حقا ان المرء يلحظ في روايات سليم البستاني خاصة نوعا من الوعي القومي المتمثل في الاعتزاز بالعنصر العربي واللغة والتاريخ ، غير أن فكرة الوطن السوري هي التي كانت في واقع الامر تستحوذ على شعوره وتفكيره ، وفي كلتا الحالتين فان البستاني قد جانبه التوفيق في التعبير عن أهدافه بطريقة فنية ٠

ان اللبنانيين المسيحيين قد صوروا في الدرجة الاولى فزعهم الشديد من التعصب الديني ، وذلك بحكم أقليتهم الدينية في دولة اسلامية ، كما صوروا في الدرجة الثانية حنينهم وشعورهم بالانتماء الى وطنهم الام ، بعد أن لاحقهم نفس الاحساس بغربة الاقلية في مصر ، وطنهم الجديد ، وربما استطعنا أن نضيف الى ذلك أن رواياتهم التاريخية ، ولاسيما روايات البستاني وأنطون ، قد عكست كذلك الصراع بين الشرق والغرب الذي كان على أشده في ذلك الوقت ، فسليم البستاني يختار ثلاث فترات تاريخية يتحدى فيها الشرق الغرب أو يهزمه هزيمة منكرة وعندمايأسى البستاني لمصير زنوبيا فهو انما يأسى في الحقيقة لسقوط الشرق الذي كانت زنوبيا رمزا لقوته وازدهاره ، وكذلك فرح أنطون فانه يأسف لفتح العرب المسلمين بيت المقدس ، لأنه يعتقد أن ذلك الفتح قد جلب في أعقابه ضعفا تدريجيا للشرق أدى في النهاية الى تحول الحضارة والقوة عنه الى العالم الغربي أثناء الحروب الصليبية ، وهذا لعمري منطق عجيب وقلب للحقائق التاريخية ٠

د ٠ منصور ابراهيم الحازمي

المصادر

(١) العصري (ساطع) : ماهي القومية ، (دار العلم للملايين ، ط ١ بيروت ١٩٥٩) ص ٢٩

(٢) Bell (A . Craig) , Alexandre Dumas (Cassell & Co. Ltd . , 1 st ed . London , 1950) P , 40 .

(٣) Cassell's Encyclopaedia of Literature, vol .I.p. 479 .

(٤) أنظر :
Lukacs, (Georg) The Historical Novel (Merlin Press , London 1962) . pp . 23 - 25 ;
هلال (محمد غنيمي) : الرومانتيكية (نهضة مصر ، القاهرة ، د . ت) ص ١٩ ــ ٢٠ .

(٥) Kohn (Hans) , Western Civilization in the Near East (London , 1936) , p . 89 .

(٦) Nuseibeh (Hazem Zaki) , The Ideas of Arab Nationalism (New York 1956) , p . 35 .

(٧) Ibid . , pp , 141 - 42 .

(٨) Ibid . , pp . 141 - 42 .

(٩) Samra (Mahmud) , Christian Missions and Western Ideas in
University 1958) pp . 285 - 86 .
University Press , 1962) , pp . 96 - 97

(١٠) Hourani (Albert) , Arabic Thought in the Liberal Age (Oxford
Syrian Muslim Writers 1860 - 1918 (a P h . d . Thesis , SOAS . London

(١١) أنظر : المقدسي (انيس) : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث (ط ٢ ، بيروت ١٩٦٠) ص ٨٠ ــ ٨١ .

(١٢) Hourani , op . cit . , p .96 .

(١٣) Antonius (George) , The Arab Awakening (London , 1938) , p . 47 .

(١٤) Ibid . pp . 49 - 50

(١٥) Ibid . p . 50

(١٦) أنظر : بدر (عبد المحسن طه) : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣) ، ص ١٦

Hartmann, The Arabic Press of Egypt (Luzac & Co. , London 1899) pp . 30 - 31 ;

(١٧) الهلال ، المجلد ١٧ (١٩٠٨) ، ص ٤ .

(١٨) زيدان (جرجي) : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٦٩ ـ ٧٠

(١٩) المقدسي : المصدر نفسه ، ص ٢١ ـ ٢٣ .

(٢٠) مجلة الهلال ، المجلد الاول (١٨٩٢) ، ص ٢

(٢١) مجلة السيدات والرجال ، مجلد ٣ (١٩٢٢) ص ٥٦٥ ـ ٥٧٢ ، وانظر أيضا : المقدسي :المصدر

(٢٢) المقدسي : المصدر نفسه ، ص ٨٠ ـ ٨١ ب

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٥٢ ـ ٥٥

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢٥) زنوبيا « مجلة الجنان ، ١٨٧١ » ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢٦) أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس (الاسكندرية ، ١٩٠٤) ، ص ١٤٩

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٥٢ ـ ٥٥ .

(٢٨) ان نظرة خاطفة الى قائمة الروايات اللبنانية ، التي صنفها الدكتور محمد يوسف نجم تحت عنوان : (القصة الاجتماعية) ومعظمها من انتاج اللبنانيين المتمصرين ، تؤكد لنا هذه الحقيقة ، انظر : القصة في الادب العربي الحديث ص ٦٦ ـ ١٣٢

(٢٩) انظر : المملوك الشارد ، وأسير المتمهدي ، واستبداد المماليك .

(٣٠) أسرار الثورة الروسية « مطبعة التمدن ، القاهرة ، ١٩٠٥ » ، ص ١